اللغة عند الشباب في ضواحي باريس

ناجي براخلي
(طالب في قسم الدكتوراه)
جامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان

السوسيولوجيا اللغوية (La Sociologie Linguistique) تعتبر أداة تربط بين أفراد المجتمع، وفي نفس الوقت تربط بين حاجياتهم ويمكن في هذا الصدد معرفة الأسباب والنتائج والقوانين التي تصلح للحياة المتشعبة ومرونتها وقدرتها على تمثيل ألوان الحضارات والتغيرات الاجتماعية وحتى اللغة التي لا تصلح لذلك.(1)

وبناء على هذا فإن الجانب الاجتماعي يعتبر عنصرا مهما لفهم الحقائق اللغوية وإعطاء تفسير واضح لمشكلاتها، إذ يهتم علماء الاجتماع بتفسير الاختلافات بين كلام أهل الريف وكلام أهل الحضر والتي يمكن إرجاعها إلى التوزيع العرقي للجماعات أو إلى الهجرة أو ما إلى ذلك من العوامل التاريخية والاجتماعية، ولهذا السبب وجد هذا الارتباط بين أبحاث علم اجتماع اللغة بالتاريخ وعلم الاجتماع السياسي وغير ذلك من العلوم السلوكية...

ومن هنا فليس لأحد أن يستغرب من الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المزرية التي تعيشها الجالية المهاجرة في فرنسا، واقصد هنا الجالية التي نزحت من شمال إفريقيا على العموم والجالية المسلمة على وجه الخصوص.

فلم يتمكن المجتمع الفرنسي حتى الآن من التعامل بشكل إيجابي مع الأقلية المسلمة في البلاد بعد مائة عام من الزمن على التوقيع على قانون الفصل بين الدين والدولة، وبعد مرور نصف قرن على الهجرة المكثفة من شمال إفريقيا، لم تتمكن فرنسا من دمج مواطنيها من أبناء المهاجرين أبناء الجيل الثاني والثالث من مسلمين وغيرهم، فأصبحت الجالية اليوم تواجه مشكلة الشبيبة المهمشة في ضواحي المدن الفرنسية.

ومما لا شك فيه أن الجالية الغالبة في فرنسا هي الجالية المغاربية، ويرجع السبب في ذلك أساساً إلى المواقع الجغرافية، وكذا العلاقات التاريخية الكولونيالية بين فرنسا وكل من المغرب والجزائر وتونس بشكل خاص.

وبدأت أولى الأفواج تصل إلى فرنسا في بداية الخمسينيات حتى قبل استقلال دول المغرب العربي، وكانت تلك الهجرة تقتصر على الرجال والشباب من دون عائلاتهم وذلك قصد العمل وحياة أفضل، والرجوع بعد ذلك إلى بلدانهم الأصلية، ثم تليها هجرة العائلات بأكملها وهي ظاهرة بدأت بشكل قوي في بداية السبعينات إلى غاية أواخر الثمانينات لأن الاقتصاد الفرنسي آنذاك قد بلغ أوج قوته، فعملت الدولة الفرنسية على تسهيل إجراءات الهجرة لأنها كانت في أمس الحاجة إلى اليد العاملة المغاربية.

ولإيواء هذا العدد الهائل من العائلات المتوافدة على أرضها قامت الدولة ببناء عمارات في ضواحي المدن والتي يسميها الباحثون اليوم

بسياسة الإقصاء والتهميش، وهذا أمر مقصود من البداية، أي من بداية الهجرة، فاعتبره علماء الاجتماع حيفا كبيراً في حق هؤلاء المهاجرين الذين جاءوا من أجل النهوض والمساهمة في الاقتصاد الفرنسي، ولكن تم عزلهم وإقصائهم إلى ضواحي المدن لأن الدولة لم تكن تريد إدماجهم في النسيج الاجتماعي الفرنسي وبدأت النتائج الأولى تظهر شيئاً فشيئاً في مطلع الثمانينات مع الجيل الأول من أصول مغاربية والذي نشأ وترعرع في فرنسا، إلا أنه شعر بأنه جيل فرنسي من الدرجة الثانية وغير مرغوب فيه.

هذه الغربة لأبناء الجالية، وهذا الإقصاء في الضواحي والأحياء، ضربة قاضية لأجيال بعينها، وبما أن هؤلاء الشباب ولدوا وترعرعوا في فرنسا أُصطلِحَ على تسميتهم بالزبدة (Beurs)،فكان لزاماً عليهم أن يختاروا حياة خاصة بهم وموقع جغرافي تحت حمايتهم وتصرفاتهم وشعارهم في ذلك الإقصاء الاجتماعي والعنصرية.

إن هؤلاء الشباب شعروا ويشعرون دائماً برفض المجتمع لهم وعدم اعترافه لهم أو بحقوقهم؛ فنطق سلوكهم بشعار مفاده:(لأنهم أرادوا تحطيمنا فسوف نحطم كل شيء.) وربما كان هذا هو الشعار الأكثر تعبيراً على مشاعر هؤلاء الشباب ومزاجهم، وبناءً على هذا فقد أصبحت فرنسا قنبلة بطيئة الانفجار من مشاعر العنف الاجتماعي.

وهذه المتناقضات التي يعيشها الشباب من أصول عربية وإسلامية وغيرها، وهذا الهجين من الثقافات والعادات والتقاليد التي تحويها هذه

الأحياء الشبيهة بالسجون ذوات السماء المفتوحة قد ولدت هذا الضياع الثقافي مما دفع بالشباب إلى تعاطي السجائر والمخدرات وإحلال كل أنواع الشغب والمغريات وبالتالي فإن هذه القيم والمواقف الثقافية المنحطة أفرزت هوية جديدة عند شباب الأحياء والتي يتم التعبير عنها من خلال لغة خاصة بهؤلاء الشباب وهي نوع من العامية المعاصرة اتخذها الشباب وسيلة تواصل بينهم ولمعارضة النظام القائم وهذا ما سوف نحاول أن نثيره في بحثنا المتواضع بعون الله.

اللغات المستعملة عند شباب الضواحي

لغة هؤلاء الشباب خاصة وهي ناتجة كما ذكرنا من قبل عن الإقصاء والتهميش، فأصبح الشباب مطبوعا على ثقافة المعارضة فصنع لغة لم يسبق لها أن تتداول من قبل وكأن هذه السياسة هي التي دفعته لاعتـــناق هذا المبدأ الذي يمكني أن أشبهه بمبدأ (خالف تعرف)، وحقيقة فإنه قد عرف بهذه اللغة الغريبة والعنيفة في آن معاً، وهي لغة وبدون شك أنها ولدت عن إثر الفجوة الاجتماعية ليعبرون عن التهميش الذي يعانون منه.

فهم يتخذون لأنفسهم لغة خاصة لا يفهمها غيرهم، والهوة اللغوية مضاعفة مع الهوة الاجتماعية المحصورة في(الغيثو)(Ghetto) الذي يعيش فيه هؤلاء الشباب.

وأنا شخصياً أُدَرِسُ في إحدى المدارس للغة العربية التابعة لمدينة ‹ مُولان › ‹Melun› الواقعة جنوب باريس لم أتمكن أن أفهم اللغة التي

يتواصل بها تلامذتي فيما بينهم، وقد وجدتها لغة سوقية وعنيفة جداً، وكنت ولازلت أحذرهم من التعامل بها وأنصحهم بالتعامل باللغة الفرنسية أو باللهجات العربية التي يعرفونها ويحسنون الكلام بها، وهي في الأصل لغة فقيرة جداً، وانتشارها بين شباب الجيل الثاني، يثير ردود فعل متناقضة، فإلى جانب الانتقادات يوجد الإعجاب والاهتمام والتفهم والكل يتفق أن خصوصية هذه اللغة تكمن في علامة مميزة لهذه الفئة من المجتمع، فهي تعلن عن اختلافهم عن عالم الكبار وإرادتهم في التحرر من الأساتذة والأولياء والمربين وهي عالمهم الخاص لا يفقهه إلا شباب هذه الشريحة الاجتماعية الخاصة.

والمؤيدون لهذه الظاهرة الجديدة في التواصل يقولون بأنها لغة جديدة مبتكرة بقواعد تكاد تكون علمية، وهي غالباً ما تعتمد على قلب موضوع المفردات كأن تصبح كلمة Parents والتي تعني الوالدين تصبح Remps أو كلمة Bizarre والتي تعني غريب تصبح Zabri ، كما تعتمد على استبدال الجزء الأول من الكلمة كأن تصبح كلمة Problème والتي تعني مشكلة لتصبح Blem والعكس أي يتم حذف الجزء الأخير من الكلمة فتصبح كلمة Isabelle وهي اسم امرأة فتصبح Isa .

ولغة الضواحي تمتزج باللغات الأصلية للمهاجرين وتستلْهمُ منها مصطلحاتها وخاصة اللهجات المغاربية العربية والتي أضحت تدخل في

كثير من التعابير كهذه الكلمات مثلاً: البلاد، شوية، الحشومة، واش، زعمة إلخ ...

وللغة الانجليزية أيضاً نصيبها الأوفر من هذه التعابير الخاصة للغة الضواحي، فقد أضحت تدخل في الكثير من المفردات بالإضافة إلى استعمال كلمات فرنسية قديمة جداً وإعادة أحيائها بعد أن اثاقلت في القاموس الفرنسي.

أنواع اللغات المستعملة عند الشباب

1. الفُوْرلُون – VERLAN:

هي لغة عامية خاصة بشباب الضواحي ناتجة عن الانقسام الاجتماعي وهوية العصابات وهي لغة لا تفهم من قبل كل سلطة، ومن ثم فإنها تصبح لغة التمييز بين هؤلاء الشباب وبين الأطراف الاجتماعية الأخرى. والفُوْرلُون VERLAN هي بمثابة لعبة لغوية تعتمد على ترميز اللغة الفرنسية عن طريق عكس المقاطع من كلمة واحدة ويرافق هذا المقطع من الصوت وهناك عدة طرق:

أ. انعكـاس بسيط

فكلمة باريس مثلا Paris فتصبح Ripa

وكلمة أزهار Fleurs فتصبح Rifleu

وكلمة غيثو والتي تعني المناطق المهمشة التي يعيش فيها هؤلاء الشباب Ghetto فتصبح Togué

وكلمة ثقيل والتي تعني Lourd فتصبح Relou

ب. قلب وإضافة صوت آخر

ويظهر ذلك في كلمة أخت مثلاً والتي تعني Sœur فتصبح Reusda....

جـ. حذف حرف العلة أو الحرف الأخير من الكلمة

ومثال ذلك كلمة شرطي أي بمعنى Flic فتصبح Clef وكلمة والد التي تعني Père فتصبح Reup ، وكلمة قاطرة التي تعني Metro فتصبح Trom إلى غير ذلك من المصطلحات المبتكرة التي يتواصل بها هؤلاء الشباب.

وهذه اللغة تختلف جذرياً عن الكلام المألوف عند عامة الناس وتعد بمثابة مُودة (mode) عند شباب الضواحي، فإذا تسربت بعض الكلمات منها بين طبقات المجتمع الأخرى فيعتبر ذلك مساساً بهويته، فيصبح لزاماً عليه أن يفكر في أدوات أخرى تمكنه من التعقيد أكثر في لغته الفُرْلُون VERLAN.

وقد استطاع الشباب عن طريق الحصص المتلفزة أو المذاعة أن يقنعوا عدداً كبيراً من الجمهور الكبير، وخاصة بالكلمات المستعملة في أغاني الرّاب Rap مثلاً؛ فأدخلوا بعض الكلمات في القاموس الفرنسي ومنها مثلاً كلمة Beur بمعنى الزبدة أي الشباب من أصل مغاربي، وكلمة keuf بمعنى الشرطة، وكلمة meuf بمعنى المرأة...

وصحيح أن هذه اللغة صعبة للفهم بالنسبة للذي لا ينتمي إلى أصحابها، كما ورد في بعض الحصص التلفزيونية التي خصصت لشباب الضواحي والتي كانت متبوعة بالشرح وذلك حتى يتسنى للمتفرج أن يفهم ما يقال.

وقد تختلف لغة الشباب في ضواحي باريس ولغة الشباب في مدن فرنسية أخرى، وذلك بحكم الظروف الاجتماعية التي يعيشها كل من هؤلاء وبحكم العصابات التي ينتمون إليها.

والفُرْلُون VERLAN هي في الأصل إرادة في قلب الموازين الثقافية ولكن قد يخطئ من يعتبرها عبارات لسانية بسيطة تقلب موازين المجتمع، فهي تعبر عن حياة هؤلاء الشباب اليومية وعن أنشطتهم ومشاكلهم المرتبطة بالتهميش والإقصاء والحرمان من العمل ونقص في الأموال وفقدان الآمال.

ومن هنا فقد سَنَّ هؤلاء الشباب سُنَّةً لأنفسهم وبإرادتهم والتي تتمثل في هذه اللغة الخاصة التي تعد بمثابة استراتيجيات لتأكيد هوياتهم المتضاربة، وهذا التقرير اللغوي لا يمكن أن يكون محوراً لتقييم الاتصالات أو المفاهيم بين شرائح المجتمع أو فهم العالم أو حتى فهم ذاته.

***- اللغة العنيفة:**

الشباب في ضواحي هذه المدن فقدوا كل شيء، فشوهت صورتهم وتلطخت سمعتهم وافتقدوا للعمل وفقدوا الأمل، بل وفقدوا حتى الأمل للأمل فأصبح يشار إليهم بالأصابع وتلصق على جباههم كل الطبائع فقذفهم هذا التقسيم إلى العيش في الجحيم وأصبحوا يعبرون

في حياتهم اليومية بالعنف وبالاستخدام الغير اللائق بلغة الاتصال، وانتهاك القواعد اللغوية باستعمالهم بعض الأساليب التشبيهية الممزوجة بالعنف والخشونة التي لا نجدها في اللغة الفرنسية الفصحى، فالفتاة الجميلة مثلاً هي قُنْبُلة Bombe، والرجل البخيل هو مُلَقَط Batar، ورجال الشرطة هي الدَجاج Poulet وغيرها من المصطلحات العنيفة المستعملة في تواصلهم.

وهناك عبارات أو كلمات قليلة الاستعمال، أو أنها لا تستعمل إلا في مواقف نادرة، أصبحت تستعمل عند هؤلاء الشباب للإيحاء بمعاني جديدة وفي سياق غير منتظر، كما في كلمة Exploser والتي تعني انفجار، وكلمة Déchirer والتي تعني تقطيع. وهي كلمات تستعمل في الضَّرب Frapper، وهذا النوع من التعبير موجود بشكل هائل في قاموس هؤلاء الشباب، وهي استعمالات عنيفة للغاية لا تليق أصلاً بالتواصل اللغوي، فالشباب الذي ينتمي إلي هذه الأحياء لا يقول لغيره سوف أَضْرِبُكَ، ولكن سوف أُفَجِرُكَ أو أُقَطِعُكَ وفي غالب الأحيان ينطق الكلمات منقوصة.

تميز هذه اللغة عند شباب الضواحي، ألفت نظر كثير من جراء اللسانيات من أهم الظواهر الاجتماعية والثقافية التي عرفتها المجتمعات الغربية وخاصة التي فتحت أبوابها لاستقبال المهاجرين خلال العقود الثلاثة الأخيرة. وكل الأبحاث انطلقت من تلك التي أنجزها وليام لابوف حول لغة السلانغ الخاصة بالأمريكيين السُود، إلى تلك التي أنجزها باحثون فرنسيون حول لغة الفُوْرلُون VERLAN ، والتي ت}كد أن اللغات الخاصة بأجيال الضواحي ليست نسخة فقيرة من اللغة الرسمية،

بل هي ابتكار فريد مهمته رَسْمَ معالم مميزة لهويتهم والدليل أنهم لا يتعاملون بها عندما يندمجون في أوساط اجتماعية جديدة في غياب المراكز الثقافية والفنية التي ظلت موصدة في وجه هذه الأجيال المهمشة لفترة طويلة، بسبب غلاء التكاليف للالتحاق بها، وجد شباب الضواحي سبيلاً لتغيراتهم الفنية، فاتخذوا من الجدران لوحات فنية لإبداعاتهم التي لم تجد من يأخذ بيدها، والتي تتمثل في رسوم الغرافيتي Graphité وهي رسوم غريبة عليها عالمات الغضب تظهر من خلال الألوان المستعملة فيها، إنهم فنانون من طراز خاص، لا يوقعون على رسومهم بأسمائهم الحقيقية وهم بذلك مجهولون وغاضبون، لكن لا يعرفوا من طرف رجال الشرطة الذين يطاردونهم ليل نهار، وغاضبون لأن الحكومة الفرنسية همشتهم ووصفتهم بالرِّعاع Rakaye وهذا المصطلح بالذات قد ورد على لسان الرئيس الفرنسي ساركوزي أثناء زيارته لإحدى الضواحي الباريسية.

و من وسائل التعبير عند شباب الضواحي أيضاً، الأغاني الشبابية والتي تعرف أيضاً بأغاني ضواحي المدن الفرنسية-Chanson des Bon lieus وهي أغاني أبناء الجالية العربية والإسلامية المولودون بفرنسا والذين يطلق عليهم اسم الزبدة Les beurs.

وهذه الأغاني تجمع بين الراي والراب، فالراي هو من طراز جزائري وهو في غالبيته يعبر عن الأحاسيس، وأما الراب فقد دخل فرنسا في أواخر الثمانينات، حمل في مضمونه أزمة الهوية للراب الأمريكي، وقد صنعه الأمريكيون السود لما أحسوا بالضياع والإقصاء.

و هذه الأغاني الشبابية التي نشأت في ضواحي المدن الفرنسية والتي عَنْوَنَها أحدُ الباحثين ميهوب ميلاني في أطروحته تحت عنوان(الضواحي بين الراب والراي) قد نشأت بين أفراد من شباب الضواحي،أراد من خلالها التعبير عن هويتهم والبحث عن الانتماء بشكل بارز في المجتمع الفرنسي الذي أقصاهم وهمشهم مدة سنوات عديدة، فاتخذها هؤلاء الشباب بمثابة صرخات عارمة تخرج من حناجر ملتهبة، تربت في أحياء مهمشة، علها تجد بذلك صدى وقبولاً لدى الحكومة الفرنسية.

ولعل أبرز سمات هذا الضياع بين هاتين الثقافتين، ثقافة شباب الضواحي وثقافة المجتمع الفرنسي من جهة ثانية، وبين عالم الشرق والغرب بصفة أكثر، هو الاستعمال للكلمات الفرنسية والتي تستعمل في اللهجة الجزائرية خاصة واللهجة المغاربية بصفة عامة، جنباً إلى جنب مع استعمال كلمات فرنسية وألحان شرقية مغاربية مع الإيقاع الغربي للرَّاب كأغنية(أولاد بلادي)، فمن يستمع إلى هذه الأغنية، فانه يلتمس إلى كل أنواع العنف اللفظي والإحساس بالضياع، والرغبة في الاندماج في واقع اجتماعي فرنسي مازال فيه الاندماج شعاراً سياسياً في الحملات الانتخابية، ولم يتجسد فيه إلى واقع تعيشه الزبدة beur في فرنسا.

ولمعرفة أسلوب هؤلاء الشباب شباب الضواحي والمتمثل في اللفظة العنيفة التي يعبر بها من خلالها أغاني الراي وأغاني الراب يكفينا أن ننصت إلى أي من أغاني الزبدة، لنستشر هذا النمط الاحتجاجي الغاضب الذي لا توازيه احتجاجية إلا عنف المضمون ، ورغبته في البحث عن لون وهوية ووطن وحلم على الرغم من أن شباب الضواحي يعلم أن تحقيق ذلك يتطلب كثيراً من الوقت وكثيراً من

الصراخ، ولنفهم كل هذا الضياع والألم لشباب الضواحي إليكم هذا المقطع من أغنية (في رأس شاب من الزبدة):

اسمع خُويا(اسمع أخي)
درَّج العربي(تكلم عربي)
فرح عن ديرو في الدنيا هنايا(يجب أن تفرح في الدنيا)
لازم نعاون لافامي(يجب أن نعين العائلة)
لا دراهم ولاخدمة (لا نملك دراهم ولا عمل/ شغل)
كيف راح نتزوجوا(كيف لنا أن نتزوج؟)
أيش مستقبل لينا(أيُ مستقبلٍ لنا؟)
أيش مستقبل لينا يرحم والديك(أيُ مستقبلٍ لنا رحم الله والديك؟)
إلى آخر الأغنية المسجلة في ألبوم الزبدة لمن يريد الاستماع.

استنتاج

قلما أدركت الحكومة الفرنسية هذا الخطر الذي ولد من رحم سياستها، والذي يهدد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية باستمرار، تراجعت عن سياستها(سياسة العنصرية والتهميش) وسارعت في إيجاد حلول ربما تدرك بها هذا الخطأ السياسي والاستراتيجي والاجتماعي الذي ارتكبته في حق هؤلاء الشباب والعائلات المهاجرة والتي نثرتهم في ضواحي المدن وكأنهم ليس لهم حق في هذا المجتمع وليس هو منهم ولا هم منه.

فالحكومة الفرنسية تسعى الآن جاهدة لفك العزلة والتهميش في هذه الأحياء والضواحي، وذلك عن طريق إعادة هيكلة المباني السكنية على وجه

خاص وقامت بترميم واجهة العمارات، وبإنشاء أماكن خضراء ودور الشباب للتسلية بعد عقود طويلة من التهميش واللامبالاة، فان الأحياء الفرنسية كانت ومازالت تحمل صور جدٌّ سلبية، فالكثير يعتقد أنها أوكاراً للمجرمين والمدمنين، وهذا طبعاً غير صحيح.

وتسعى الحكومة الفرنسية كذلك وبالتنسيق مع الجمعيات والكتل الناشطة على مستوى البلديات والأحياء على الساحة الاجتماعية، بتعيين عدد هائل من المربيين والمنشطين Médiateurs مع إعطائهم الورقة الخضراء في ممارسة نشاطهم في هذا الميدان، وذلك حتى يتقربوا من هؤلاء الشباب الضائع الغير مرغوب فيه، ويقومون بتوعيتهم وحثهم على إكمال دراستهم والوقوف بجانبهم عند مواجهتهم لبعض المشاكل المختلفة وذلك ليتمكنوا من الدخول إلى عالم الشغل مما يشجع الدولة بالاعتناء أكثر بهذه الأحياء وخاصة عندما ترى بأن هناك طاقات تتخرج من أحياء (الرعاع).

وخلال السنين الأخيرة، اكتمل نصاب الوعي في أذهان المسؤولين وكل الهيئات المعنية، فجدوا في السعي لرد الاعتبار لسكان الضواحي وإعانة الشباب من أصول مهاجرة، فالرئيس ساركوزي قد عين أحد رجال الأعمال من أصول جزائرية السيد يزيد سابق كمندوب سامٍ من أجل تشجيع ما يعرف(بالتنوع) La diversité ، أملاً منه في رؤية نخبة من أصول عربية وغيرها من الأقليات تتربع أرقى المناصب السياسية على وجه الخصوص.

كما يوجد هناك صحوة من الأولياء يقدمون تضحيات كبيرة من أجل تعليم أبنائهم وتربيتهم أحسن تربية، وهذا ما كان يفتقده الكثير من الجيل الأول

لان أغلب الآباء كانوا أميين آنذاك، فلم يكن لهم الحظ الوافر في تلقي كل التشجيعات لإكمال دراستهم ومواجهة كل التحديات في الحياة.

Bibliographie :

2. Le Poutre D. Cœur de banlieue, Codes, Rites et Langages. Paris, O. JACOB 1997.
3. Mauger G. « Les définitions de la jeunesse : discontinuité sociales et évolutions historique ».
4. Les politiques d'intégration des jeunes issus de l'immigration, Paris, Géni-L'HARMATTON, 1989.
5. Fitoussi J.P, Posonvallon P. le nouvel âge de l'intégralité. Paris, Seuil, 1996.
6. Touroine A. poursuivons vivre ensemble ?égaux et différents. paris. FAYARD, 1997.
7. Faronugia F. la crise du lieu social, essai de sociologue critique .Paris .L'HARMATION, 1993.